

تمهيد

لا توجد طريقة لمعرفة متى ستكتمل مشاهداتنا لحوادث الطبيعة، فمعارفنا محدودة بينما جهلنا لا نهائي، كما يؤكد كارل بوبر. لذلك فإنه لا يمكن في الطب إطلاقاً التيقن من مضاعفات مداخلتنا، ويمكن فقط تخفيف غموض تلك المضاعفات. ورغم أن هذا الاعتراف قد يبدو متشائماً فإنه ليس كذلك، فالإدعاءات التي تقاوم التحديات الفعّالة والمتكررة غالباً ما يثبت أنها ادعاءات موثوقة. ومن مثل تلك "الحقائق العملية" تبنى أسس لأبأس بتماسكها لممارستنا السريرية اليومية.

وليم سيلفرمان، أين البرهان (1)

مازلنا زملاء منذ سنوات طويلة تقاسمنا فيها ليس فقط الرفقة المهنية بل أيضاً القناعة الراسخة بأن المعالجات الطبية قديمة كانت أم حديثة يجب أن تكون مسندةً ببراهين صلبة. ولكن تبين لنا من خبرتنا مجتمعين في مجال الرعاية الصحية وأبحاثها أن الواقع لا يتطابق مع تلك القناعة، مما شجعنا على تأليف هذا الكتاب. فعمل ايموجين ايفانز

في البحث الطبي أثار فضولها لمعرفة البراهين الداعمة لما وصفته لمرضاها من علاجات، أما عملها كصحفية طبية في اللانست فقد عرضها لمحاولات فاضحة من قبل بعض الباحثين وبعض شركات الأدوية للانتفاف على الحقيقة عن طريق تشويه أو تزوير نتائج بحوثهم. كذلك فإن الدعوة غير المتوقعة التي تلقتها هازل ثورنتون للمشاركة في تجربة سريرية مشكوك بنوعيتها وضحت لها ضرورة أن تُشارك بشكل فاعل في سباق تطوير علاجها وأن لا تكون مجرد متلقٍ سلبي للرعاية الطبية. لذلك فقد دعت بقوة إلى التعاون بين الكوادر الطبية وبين المرضى من أجل دعم البحوث الصحية الجيدة بتقديم معلومات جيدة النوعية للمرضى. أما إيان تشالمرز فقد استحوذت عليه فكرة التقييم الدقيق لتأثيرات ما يفعله الأطباء بمرضاها أثناء عمله في مخيم للاجئين الفلسطينيين حيث بدا له أن بعض مرضاه كانوا يموتون لأنه كان يمارس الطب بالطرق التي تعلمها في كلية الطب. لذلك فقد دعت بقوة منذ ذلك الحين إلى وجهة النظر القائلة بأن اتخاذ قرارات الرعاية الصحية يجب أن يتم في ضوء البراهين غير المنحازة المشتقة من البحوث ذات الصلة، وخصوصاً منها نتائج المراجعات المنهجية للتجارب المضبوطة.

تنتج دراسات تأثيرات العلاجات سنوياً تلاماً من النتائج، ولكن من المحزن أن الكثير من هذه البحوث يفشل في تلبية احتياجات المرضى، وأن البحوث الموجهة لتلبية احتياجات المرضى يغلب أن تنتج براهين غير مؤكدة. ونأمل بأن كتابنا هذا سيسلط الضوء على مسائل أساسية للتيفن من سلامة تخطيط وتصميم أبحاث علمية تُجيب على أسئلة تهم المرضى والكوادر الطبية التي يستعينون بها. فهذا الكتاب ليس دليلاً للمفاضلة بين مختلف العلاجات، بل سبيل لتوضيح شروط إخضاع العلاجات لتجارب عادلة.

نصف في الفصل ١ كيف أدت بعض العلاجات الجديدة إلى تأثيرات مؤذية لم تكن متوقعة، وكيف فشلت علاجات أخرى في تحقيق تأثيراتها المرجوة، وكيف ثبت خطأ بعض التنبؤات بأن بعض العلاجات لن تنفع، وكيف أن بعض نتائج البحوث لم تطبق في الممارسة العملية. ونسلط الضوء في الفصل ٢ على حقيقة أن الكثير من العلاجات واختبارات المسح شائعة الاستخدام لم يخضع لتقييم مُنفع. ويقدم الفصل ٣ بعض "التفاصيل التقنية" - حيث نلخص أسس التجريب العادل للعلاجات، مؤكدين أهمية التنبيه للحد من احتمال الانحياز ولأخذ دور الصدفة بعين الاعتبار. ويقدم هذا الفصل أيضاً مفاهيم مثل التجربة السريرية العشوائية والغفل والحاجة للمراجعة

المنهجية لكل البراهين ذات الصلة. أما في الفصل ٤ فنصف غيضاً من فيض أشكال الغموض التي تتخلل كل مظهر تقريباً من مظاهر الرعاية الطبية، وكيفية التعامل مع هذا الغموض . يُرَكِّز الفصل ٥ على توضيح الفوارق الرئيسة بين ما هو جيّد، وما هو سيّء، وما هو غير لازم من أبحاث حول تأثيرات العلاجات. و نشير في الفصل ٦ إلى أن الكثير من البحوث تتعرض للتشويه لأسباب تجارية وأكاديمية فتفشل في معالجة مسائل يرجح أن يكون لها تأثير حقيقي على رفاه المرضى. أخيراً، يضع الفصل ٧ مخططاً لما يمكن للمريض أن يفعله لضمان تجريب أفضل للعلاجات، ونقدم في الفصل ٨ خطة لثورة في تجريب العلاجات بشكل اجراءات عملية يمكن البدء بها الآن.

إن كل فصل موثق بمجموعة مختارة من المصادر الرئيسة، مع ذكر بقية مصادر المعلومات في قسم "المصادر الإضافية" في آخر الكتاب . ويمكن لمن يرغب بمزيد من التعمق البدء من مكتبة جيمس ليند في الموقع www.jameslindlibrary.org حيث يتوفر عنوان للبريد الإلكتروني نتلقى من خلاله تعليقات القراء على كتابنا هذا (testingtreatments@jameslindlibrary.org).

بالرغم من أننا نصف الأضرار التي سببتها بعض المعالجات التي لم تخضع لتجريب كاف، فإنه من المؤكد أننا لا نرمي إلى تقويض ثقة المرضى بأطبائهم، فهدفنا هو تحسين التواصل وتعزيز الثقة. ولكن ذلك لن يحدث إلا إذا قام المرضى بمساعدة أطبائهم في التقييم الناقد لمختلف خيارات العلاج. نأمل أنك عزيزنا القارئ ستخرج من هذا الكتاب شريكاً لنا في حبنا للموضوع، وأن تباشر بتوجيه أسئلة محررة عن العلاجات، وأن تتعرف على ثغرات المعارف الطبية، وأن تشارك بأبحاث علمية موجهة لإيجاد أجوبة فيها فائدة للجميع .